الجـزء الثـالـث : ملـف مانديـلا

- نلسون مانديلا.. سجين الحرية
- وينى ومانديلا أسطورة القرن العشرين
- جراسا ماشيل.. زهرة موزمبيق

نلسون مانديلا.. سجين الحرية

كان اسمه عند الميلاد «دوليها هلا» ومعناه المشاغب، ولم يكتسب اسمه المألوف نلسون مانديلا حتى يوم التحاقه بالمدرسة، ومع أنه كان لا يؤمن بأن الأسماء تصنع قدر الإنسان، ولكنه عزا أصدقاؤه الزوابع التى واجهها إلى اسمه. وفى أول يوم له فى المدرسة قالت له المدرسة إن اسمه الجديد هو نلسون مانديلا، فقد كان البيض لا يريدون ولا يستطيعون نطق الأسماء الإفريقية، ويعتبرونها تخلفًا.

ولد فى شهر يوليو ١٩١٨م فى «مفيزو» وهى قرية صغيرة فى إقليم أومتانا، كانت سنة مولده نهاية الحرب العالمية الأولى، وزيارة وفد المؤتمر الوطنى الإفريقى إلى فرساى لكى يعبر عن معاناة الأفارقة فى جنوب إفريقيا.

كان والده رئيس قبيلة، وكان يمكن لمانديلا أن يعيش حياة هادئة، فهو من أسرة حاكمة هى عائلة تيمبو الحاكمة بمنطقة ترانسكاى بجنوب إفريقيا. وكانت هذه العائلة تحكم المنطقة قبل أن تخضع لسيطرة العنصريين البيض، وقبل أن تفرض عليها قوانين التمييز العنصرى التى سلبت المواطن الإفريقى صاحب البلد والأرض كل الحقوق الإنسانية: حق العيش والتنقل والتملك والعمل، وفرضت عليه ألوانًا من العبودية والسجن والتعذيب. كل ذلك بموجب دستور جائر وضعه الغزاة البيض يحرم على الأغلبية الساحقة أصحاب البلاد الأصليين ممارسة السيادة على أرضهم.

وقصة الاستعمار فى جنوب إفريقيا قصة مريرة، لعل بقعة فى العالم لم تشهد نوعًا من الاستعمار الاستيطانى العنصرى الذى جثم على البلاد منذ عام ١٩١٠م، فقد كان إعلان اتحاد جنوب إفريقيا بمثابة عمل من أعمال إنهاء الاستعمار من بريطانيا؛ ليعطى لهؤلاء المستعمرين الغزاة (المستوطنين البيض) مزيدًا من الحرية فى البطش، وتجريد الأغلبية من حقوقهم ومن صفة المواطن ليخضعها لتمييز عنصرى فادح متواصل.

فى ظل هذه الأوضاع البائسة ولد مانديلا عام ١٩١٨م، وأتيح له ضمن قلة معدودة أن يدرس الحقوق بجامعة جوهانسبرج، وبدأ يتدرب على المحاماه والأعمال القانونية. ولكن منذ بداية عمله اصطدم بقيود القوانين التى تكرس التفرقة والتمييز العنصرى. وطبقًا لهذه القوانين منع مانديلا من العمل كمحام فى جوهانسبرج، إلا إذا حصل على إذن من السلطات. وبالطبع لم تمنحه السلطات هذا الإذن، بل أصدرت أوامرها بإبعاده إلى منطقة بعيدة لكى يستحيل على زبائنه أن يصلوا إليه خلال ساعات العمل المسموح بها.

وفى عام ١٩٤٤م انضم مانديلا لحزب المؤتمر الوطنى الإفريقى الذى تأسس عام ١٩١٢م، وقام بالاشتراك مع الآخرين لصياغة برنامج العمل للحزب الذى يعتبر حدّا فاصلاً فى تاريخ جنوب إفريقيا، فقد أعلن البرنامج الكفاح الوطنى للسود عن طريق الإضرابات والمقاطعة والعصيان المدنى.

وفى عام ١٩٥٢م قاد مانديلا «حملة التحدى» التى اشترك فيها ٨٥٠٠ من المواطنين المتعددى الأجناس ضد القوانين والتشريعات غير العادلة. فألقت السلطات القبض عليه، وحكمت عليه بالسجن لمدة تسعة أشهر مع إيقاف التنفيذ، ووضعته تحت المراقبة، وحظرت نشاطه.

ويصف مانديلا كيف اضطهدته الحكومة فى السنوات التالية. وكيف حرمته من حقه فى ممارسة مهنته أو إعلان معتقداته، يقول: «لقد اصطنعت الحكومة القوانين واستخدمتها ضدى لتغل نشاطى. وفسرت الحكومة قوانينها بطريقة محسوبة جعلتنى أبدو كما لو كنت خارجًا عليها، ووجدت نفسى أعامل كمجرم بلا جريمة. لقد جعلنى القانون مجرمًا ليس بسبب فعل ارتكبته، وإنما بسبب ما أرمز إليه وأناضل من أجله».

ثم أدين مانديلا بتهمة الخيانة العظمى. . الخيانة العظمى؛ لأنه يدعو إلى قيام دولة ديمقرطية غير عنصرية يتساوى فيها الجميع فى الحقوق والواجبات. وأثناء نظر القضية التى استمرت أمام المحاكم ٤ سنوات وقعت مذبحة شاربفيل (فى مارس ١٩٦٠م) وهى المذبحة التى أثارت غضب العالم كله، وأسفرت عن مقتل ٦٩ إفريقيّا، وجرح المئات.

وبالرغم من براءة مانديلا من قضية الخيانة العظمى، إلا أن السلطات أصبحت تعتبر مانديلا خارجًا على القانون بصفة دائمة. وصدر الأمر بالقبض عليه، واضطر مانديلا إلى الاختفاء واللجوء إلى العمل السرى.

وقام بتأسيس منظمة «رمح الأمة» الجناح العسكرى لحزب المؤتمر الوطنى الإفريقى. وأصدر مانديلا ـ باعتباره رئيسًا للمنظمة ـ بيانا جاء فيه: «لقد انقضى عهد المقاومة السلمية وحدها، ولم يكن الخيار خيارنا، لقد واجهت الحكومة العنصرية كل مطلب سلمى بالقوة والعنف.. إن الأمم فى وقت تجد نفسها أمام طريقين لا ثالث لهما: الكفاح أو الاستسلام. وقد جاء هذا الوقت على جنوب إفريقيا. ونحن لن نستسلم، وليست أمامنا فرصة أخرى سوى أن نضرب بكل ما يتاح لنا من قوة لندافع عن حقوق شعبنا من أجل مستقبلنا وحريتنا».

واستطاع ـ رغم تخفيه ـ أن يغادر البلاد، وأن يشارك فى المؤتمر التأسيسى لمنظمة الوحدة الإفريقية الذى عقد فى أديس أبابا عام ١٩٦٣م. وقد أثار هذا العمل ثائرة السلطات فى جنوب إفريقيا، واعتبرته تحديًا لها. وبمجرد عودته ألقت القبض عليه فى أغسطس ١٩٦٣م بتهمة مغادرة البلاد بطريقة غير قانونية، وأدين وحكم عليه بالسجن مدى الحياة.

وقد عرض نظام جنوب إفريقيا العنصرى على مانديلا أن يفرج عنه مقابل أن يغادر البلاد، ولكن مانديلا رفض، واشترط هو لخروجه من السجن أن يطلق سراح جميع زملائه المسجونين السياسيين، وأن تعترف الحكومة بشرعية حزبه حزب المؤتمر الوطنى الإفريقى قائلاً: «إن حريتى وحرية شعبى شىء واحد ولا يمكن أن يفصلا، ولست مستعدًا لأن أبيع أو أساوم على حق شعب جنوب إفريقيا فى أن يعيش حرًا».

كان يوم ١١ فبراير ١٩٩٠م يومًا مشرقًا من أيام نهاية الصيف فى جنوب إفريقيا، وفى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر أفرج عن سجين الحرية نلسون مانديلا بعد ٢٧ عامًا سجنًا متواصلاً. ويصف مانديلا الخروج بقوله: «عند بوابة السجن كان هناك مئات المصورين وكاميرات تليفزيون، ورجال الصحافة وآلاف من المؤيدين، وتملكنى الذهول والانزعاج، فلم أكن أتوقع كل ذلك. وحينما دفع إلى فريق تليفزيونى بشىء غامق فروى الملمس تراجعت قليلاً ظنًا منى أن ذلك سلاح تم اختراعه أثناء تواجدى فى السجن، فأخبرتنى «وينى» أنه مكبر للصوت. وحينما توسطت الجمع رفعت قبضتى اليمنى وحدث صخب هائل، فلم أكن قد تمكنت من ذلك منذ سبعة وعشرين عامًا، وأمدنى بفيض من القوة والبهجة، وشعرت ـ وكنت فى الحادية والسبعين ـ أن حياتى تبدأ من جديد.

وعندما عدت إلى منزلى تحققت أن ما تشوقت إليه دائمًا وهو الحياة العادية فى منزلى لن يمكن تحقيقه، فإنه فى تلك الليلة وعدة أسابيع وشهور ظل المنزل محاصراً بمئات المهنئين الذين أخذوا فى الرقص والغناء والتهليل، ولم أجد مفرّا من مشاركتهم، وكان ذلك على حساب أسرتى مرة أخرى.

كان نشاط «وينى» ومواقفها الحادة تجاه بعض رجال الحزب سببًا فى إحداث فجوة بينها وبين قيادة الحزب. وخير مانديلا بين الزوجة أو الحزب فاختار الحزب. يقول فى سيرته الذاتية: «فى ١٣ أبريل ١٩٩٢م وفى مؤتمر صحفى أعلنت انفصالى عن زوجتى «وينى»، فقد أصبح الموقف صعبًا لدرجة أننى شعرت أنه لمصلحة كل الأطراف: المؤتمر ووينى والأسرة أن نفترق. وبعد أن استعرضت فى بيانى تاريخ علاقاتنا والتضحيات التى تحملتها وشجاعتها وإخلاصها اقتنعت أنه نظراً للتوترات التى نشأت فى علاقتنا فى الشهور الأخيرة بشأن خلافها على عدد من القضايا فقد اتفقنا على الانفصال، وأن خطوتى تلك لم يدفعنى إليها الاتهامات ضدها فى وسائل الإعلام؛ لأنها كانت وما تزال تثق فى تأييدى الذى لم يتزعزع خلال تلك اللحظات الصعبة فى حياتنا.. وأضفت: ربما كنت قد عميت عن أشياء بعينها بسبب الألم الذى كنت أشعر به لعدم قدرتى على القيام بدور الزوج أو الأب، ولكنى مقتنع أن حياة زوجتى أثناء وجودى فى السجن كانت أصعب من حياتى، وكانت عودتى أكثر صعوبة بالنسبة لها، فقد تزوجت رجلاً سرعان ما تركها وصار ذلك الرجل أسطورة، وعند عودة الأسطورة إلى المنزل ظهر أنه مجرد رجل».

وكما ترك مانديلا بيته وأسرته خضوعًا لرغبة حزبه، فقد ترك الحزب والسلطة بعد ذلك، ولكن برغبته هذه المرة، ترك السلطة لنائبه مبيكى بعد أن أدى واجبه الوطنى والإنسانى على أكمل وجه، وصار أشهر شخصية سياسية فى تاريخ القرن العشرين.

لم أشأ أن أستغرق فى الكتابة عن مانديلا السياسى فقد كتب عنه الكثير، فهو أكثر الرجال المعاصرين الذين حظوا بالشهرة وبالكتابة عنهم، ولكنى شئت فقط أن أقدم مانديلا من زاوية أخرى، إنسان عادى يُحِب ويُحَب، وهذا ما أفردت له الموضوعين التاليين.

وينى ومانديلا
أسطورة القرن العشرين

وينى مانديلا ـ ماما ويثو، أى أم الأفارقة كما يعبرون عنها ـ ونلسون مانديلا رئيس جنوب إفريقيا، والزعيم الوطنى الإفريقى هما عطيل وديدمونة القرن العشرين. . عطيل فى الأسطورة الأدبية قتل ديدمونة مديا، ونلسون مانديلا الأسطورة الحية قتل وينى معنويّا ونفسيّا، وحطم قصة حب رائعة ترددت أصداؤها فى أجواء القارة الإفريقية.

كانا رمزًا للحب والتفانى والنضال والبطولة طوال ٢٧ عامًا قضاها الزوج فى السجن يحلم بنظرة من زوجته، وبضمة من حنانها أو حتى لمسة من يدها. كتب لها فى السجن خطابات كثيرة بثها حبه وهيامه وأفكاره وآراءه، وكرست هى شبابها وحياتها كلها فى العمل على نشر هذه المبادئ والتعاليم بين شعبها شعب جنوب إفريقيا.

لم تستطع قوة وهما بعيدان خلف الأسوار أن تفرق بينهما أو تحدث جفوة، ولكن عندما أفرج عن الزوج وقعت الواقعة وحدثت الوشايات ولم يستطيعا أن يمنعا هجمة الاتهامات للزوجة المحبة الوفية التى كل جريمتها أنها شخصية قوية ناضجة مستقلة تريد أن تصد عن زوجها حقد الآخرين وتبصره حتى لا يسقط فى شباك المحيطين به ـ تقول وينى: «لقد كرست حياتى كلها فى العمل على استبقاء مانديلا ومبادئه، وإنه مما يؤلمنى تقويض هذه المبادئ بواسطة الرجال المحيطين بمانديلا والذين يخدمونه». لم يرض هذا السلوك المستقيم رجال الحزب المسيطرين، فتآمروا وتكاتفوا للقضاء عليها سياسيّا وإخماد نشاطها الثورى، ولفقوا لها التهمة تلو التهمة. وعندما شوهت صورتها تمامًا خيروا مانديلا بين الحزب والزوجة فاختار الحزب والسلطة، وكان الفراق والطلاق والانفصال.

كتب كلٌّ منهما كتابًا يحكى سيرته الذاتية مع الآخر، كتبت وينى كتابها بعنوان «روحى ذهبت معه» وكتب مانديلا كتابه «المسيرة الطويلة إلى الحرية» حكى فيه قصته مع الفتاة الجميلة التى وقع فى حبها منذ اللحظة الأولى، كتب يقول: «منذ اللحظة الأولى التى رأيت فيها وينى تمنيت أن تصبح زوجة لى، أول مرة رأيتها كانت تقف عند محطة أوتوبيس بالقرب من المستشفى التى كانت تعمل فيه كإخصائية اجتماعية فى سويتو، إذ لمحت عيناى فتاة جميلة تنتظر الأتوبيس أدرت رأسى أتابعها، ولكن سيارتى تحركت وجرت سريعًا، وظل وجه هذه الفتاة فى مخيلتى ومعى يطاردنى. وبعد عدة أسابيع حدث ما يشبه المعجزة؛ إذ كنت فى مكتب رفيق النضال «أوليفر تمبو» فوجدت هذه الفتاة الصغيرة مع أخيها تجلس فى مواجهة تمبو الذى قدمها لى أنها تستشيره فى استشارة قانونية».

وفى اليوم التالى اتصل مانديلا تليفونيًا بالمستشفى الذى كانت تعمل به وينى وطلب منها مساعدته فى دفع مبلغ للدفاع عن المتهمين بالخيانة العظمى. ويقول مانديلا: كان ذلك مجرد ذريعة للقائها ودعوتها على الغداء فى مطعم هندى بالقرب من مكتبى.. كانت وينى متألقة باهرة، ولم تكن قد ذاقت من قبل الطعام الهندى الحاذق فأخذت تشرب كوب الماء تلو الكوب لتطفئ لهيب فمها مما زادها جاذبية، وبعد الغداء تمشينا فى حديقة مجاورة وحدثتها عن آمالى وعن الصعوبات التى تواجه من يتهم بالخيانة العظمى، وسألتها إن كانت تقبل الزواج بى.. الحقيقة أننى لم أستطع مقاومة روحها وعاطفتها وشبابها وشجاعتها، وقعت فى حب كل ذلك منذ أول لحظة رأيتها.. وظلت وينى عدة سنوات تضحك وهى تخبر الناس بأن مانديلا طلبها للزواج، ولكنه لا ينوى ذلك. وكنت دائمًا أؤكد لها أنى جاد فى الزواج منها؛ وأن الأيام ستثبت لها صدق قولى، فقد كان هناك حائل يحول دون إتمام هذا الزواج؛ إذ كنت فى ذلك الحين أسعى للانفصال عن زوجتى الأولى «إيفلين ماسى» التى تزوجتها عام ١٩٤٦م، وأنجبت لى ولدًا وثلاث بنات ماتت إحداهن.

كانت إيفلين الزوجة الأولى شديدة التدين تكره العمل السياسى، ولا تعترف بالنضال الوطنى، وفى عام ١٩٥٥م خيرت مانديلا بينها وبين استمراره فى الحزب (حزب المؤتمر الوطنى الإفريقى) وبعد وقت قصير قبض على مانديلا مع آخرين

وأمضى أسبوعين فى السجن، وعندما عاد إلى منزله «وجدت إيفلين قد تركته وأخذت الأولاد. . رجعت إلى مسكن موحش ساكن، باختصار حصلت على الطلاق وتزوجت وينى فى ١٤ يونيو ١٩٥٥م».

كانت وينى السادسة بين أحد عشر أخًا، وعندما أخبرت أباها بعزمها على الزواج منى قال لها: «ولكنك ستتزوجين أليف سجون»، وأثناء احتفال الزواج قال الوالد «لقد تزوجتى رجلاً متزوجًا فعلاً النضال» وتمنى لابنته حظّا سعيدا وأنهى كلامه «والآن يجب عليك أن تتبعى رجلك حيثما ذهب». لم يضف كلام والد وينى جديدًا؛ فقد كانت الابنة قد قررت ذلك قبل الزفاف، وقررت أن تسير فى طريق من اختاره قلبها وعقلها. يقول مانديلا: «لقد شرحت لها الصعوبات التى تنتظرها، وأخبرتها أننا محظوظان لأن لديها راتبًا ضئيلاً من عملها كإخصائية اجتماعية، وتفهمت وينى ذلك وقالت: إنها استعدت لهذه المخاطرة ومستعدة أن تلقى بنفسها فى المخاطر من أجل مواصلة مسيرتى. . لم أعدها بشىء لا بذهب ولا بماس، فلم أكن قادرًا يومها على إعطائها شيئًا من هذا. . ربما كانت وينى كتب عليها الكفاح منذ مولدها، فاسمها الثانى «نومزامو» معناه النضال أو معتاد المحاكمات، إن الأسماء تتنبأ بما يكون. ويقول مانديلا: إن وينى كانت من وسط اجتماعى طيب ومن أسرة إفريقية عريقة، ولكنها لم تكن تهتم بأى مظهر، ولا حتى إذا كانت ستحصل على وجبة طعام تالية. وقبل الزواج كانت تتحرك بين أوساط وعلاقات اجتماعية صحية ومريحة، وحياة تختلف كثيرًا عن حياة المناضلين الذين لا يملكون قوت يومهم، وبعد الزواج لم يكن هناك وقت ولا مال لشهر العسل فزوجة المناضل دائمًا مثل الأرملة حتى عندما يكون زوجها غير سجين. كنت أنتظر محاكمتى بتهمة الخيانة العظمى، وأعطتنى وينى الأمل، وشعرت أننى منحت عمرا جديدًا وفرصة ثانية للحياة، فحبى لها أعطانى إصرارا على الكفاح من أجل البقاء.

كانت وينى فى الخامسة والعشرين من عمرها عندما تزوجت، وسرعان ما اندمجت فى الحياة السياسية التى يحياها الرجل الذى اختارته، واندمجت فى نشاطه الدائب وأنجبت له ابنتين جميلتين هما «زينانى» فى فبراير ١٩٥٨م و «زندزيزوا» عام ١٩٦٠م، وكانت هذه هى كل السعادة التى شهدتها فى زواجها؛ إذ قبض على مانديلا، وظل

سجينا ٢٧ عامًا. وحسب قوله: عشرة آلاف يوم، وطوال هذه الفترة لم تترك وينى لحالها؛ فقد سجنت مرات ومرات، وذاقت الهوان والهول على يد الحكومة العنصرية. وفى عام ١٩٨٤م سمح لوينى لأول مرة بزيارة زوجها فى السجن، وكان ذلك بعد ٢١ عاما عندما وضع مانديلا يده فى يد زوجته. يصف مانديلا هذا المشهد: «لقد قبلتها وضممت زوجتى ولم نتكلم وتركنا صوت قلبينا ينبض بالحب، وتمنيت ألا أتركها أبدًا، ولكنى أدركت أنى سجين، وأننى منذ ٢١ سنة لم ألمس يد زوجتى».

إن من يكتب ويبوح بهذا الكلام لا يمكن أن يكون إلا محبًا عاشقًا، فكيف انفلتت الأعصاب ووهنت العواطف وحدث الانفصال الذى وصف بأنه طلاق القرن العشرين.

الحقيقة، أن وينى ظلمت من الجميع، ولكنها استطاعت بعد عامين من الانفصال عن الزوج وعن النشاط السياسى الحزبى استعادة رصيدها السياسى، وأن تجبر مانديلا بعدما عين رئيسًا لجنوب إفريقيا أن يعينها نائبة لوزير الثقافة والعلوم.

لقد شوهت الصحافة ووسائل الإعلام العنصرية سمعة وينى، بل وشوهها أيضا بعض رجال حزبها «حزب المؤتمر الوطنى الإفريقى» الذين تكاتفوا للقضاء عليها سياسيًا، وإخماد نشاطها الثورى، وأجبرت على الاستقالة من كل وظائفها فى الحزب وفى لجنته التنفيذية، ومن الرابطة النسائية، وأصبحت منبوذة من الجميع، ولم يتعامل معها أحد سوى عدد ضئيل من شباب حزبها الذين أظهروا بعض التعاطف معها، واستطاعت بدعمهم أن تكسب قدرًا من التأييد فى المدن.

كانت العودة السياسية لوينى البالغة من العمر ٦١ عامًا فى ديسمبر ١٩٩٣م عندما رفع الحظر عن رابطة النساء التابعة لحزب المؤتمر الوطنى الإفريقى بعد جدال واسع حول هذا التنظيم، وانتخبت وينى رئيسة للرابطة، وهذا المنصب يعد ثانى أقوى منصب فى الحزب بعد منصب رئيس المؤتمر. وقد دمعت عينا وينى عندما انتخبت رئيسة لرابطة النساء وهى تخطب بين مؤيديها: «لقد طوقتمونى بشرف كبير، أنا لم تصنعنى وسائل الإعلام، ولم أؤمن قط بأن زعماءنا تختارهم الصحافة، هذه المرحلة قد ذهبت، والآن فإن الجماهير تختار قادتها، لقد جئت من قاع المجتمع، ولا يمكن أن أدع شعبى فى القاع، إن السياسات الشعبية هى الصراع الوحيد الذى أفهمه، وأنا لست مؤمنة بالسياسات التى تؤدى إلى ركوب المرسيدس وتتجاهل الجماهير.

وهكذا استردت وينى لقب ماما ويثو، أى أم الأفارقة كما يعبرون عنها بتعاطف شديد فى دوائر الحزب. وعادت لتكون الابنة البارة بين مؤيديها، وخاصة الشباب المتحمس فى المدن والمعسكرات. وتقدمت وينى الانتخابات كقيادة شعبية تمثل الجماهير المضطهدة والفقراء، وكانت الخدمات الاجتماعية التى تقدمها هى ما بنى لها قاعدة قوية بين الفقراء والمساكين. وفى بحث أجرى سريّا فى الحزب حول مدى التأييد الذى تتمتع به زعامات الحزب وجد أن وينى تندرج بين القادة الخمسة على القمة.

إن وينى التى تعد من أشهر الشخصيات النسائية فى العالم، والتى تحسدها الكثيرات المتطلعات للزعامة، لم تعرف طعم الحياة الهادئة مطلقًا، فبعد زواجها من مانديلا عام ١٩٥٥م دخلت السجن عدة مرات حتى قبل أن يسجن مانديلا نفسه عام ١٩٦٢م لمدة ٢٧ عامًا متصلة. وكتب عليها أن تناضل فى أكثر من جبهة فى آن واحد. جبهة توفير لقمة العيش لابنتيهما وأطفال الشهداء، وجبهة تأليب الرأى العام المحلى والدولى ضد النظام العنصرى، وجبهة العمل للإفراج عن زوجها، ومواصلة كفاحها فى إطار حزب المؤتمر الوطنى الإفريقى. . اعتقلت وذاقت كل ألوان التعذيب والإهانات، فجر منزلها عام ١٩٨٥م، وأشعلت فيه النيران مرة أخرى عام ١٩٨٨م، وكانت لا تستقر فى مكان خشية السقوط إما بيد أجهزة الأمن، أو برصاص القوى العنصرية.

وشنت على وينى حملات ظالمة وألصقت بها اتهامات باطلة كثيرة، اتهمت باختلاس أموال الحزب، وأنها شاركت فى تعذيب صبى حتى الموت، وأنها مدمنة كحول، وأنها تتصرف بصورة غير مشرفة وغير مسئولة وتشوه سمعة الحزب، كما اتهمت جمعيتها التى تعرف باسم «اتحاد حراس مانديلا» بأنهم يضربون ويقتلون صبية المدارس، ويغتصبون الفتيات، ويحرقون المنازل والممتلكات الخاصة لكل من يعارض وينى وأفكارها، حتى أصبح مجرد ذكر اسمها يثير الرعب. وسرب ذلك لمانديلا وهو فى سجنه، فلما خرج لم يضيع وقته، ولم يحاول أن يتأكد من صدق هذه الاتهامات، بل أمر وينى بأن تلغى جمعيتها وتنهى علاقتها بهم. وداومت أجهزة الإعلام فى جنوب إفريقيا الموالين للتفرقة العنصرية، واستغلت الفرص للتشنيع عليها وعلى الحزب حتى صارت وينى موضوعًا سياسيّا، واتخذ قرار انفصالها أعلى مستويات الحزب، وضغط الحزب على مانديلا ليطلقها إذا شاء البقاء فى قيادة الحزب ويكون

مرشحه الوحيد لرئاسة الدولة. لم يستطع مانديلا الصمود وأعلن قرار طلاقه، وأجبرت وينى على التخلى عن كل مسئولياتها القيادية فى الحزب.

والغريب أنه بعد أن تم تشويه سمعة وينى وفقدت مركزها الحزبى، برأتها محكمة العدل فى بريتوريا من تهمة قتل الصبى لعدم توافر الأدلة على تورطها. وبعد تبرئتها بدأ نجم وينى يصعد من جديد.. والمهم أن الانفصال لم يسكت وينى، وإنما جاء كما لو كان حررها وأطلق قيودها وأعطاها رخصة أن تقول أى شىء يرد على ذهنها كما تشتهى، فهاجمت قيادات الحزب، واتهمتهم بالفشل أن يكونوا قيادة شعبية، ودعت إلى قيادة جديدة تحقق مصالح الجماهير، وهذا مما دفع الحزب أن يطردها من مناصبه، وأطلق شائعات عن غرامها مع محاميها، وكذلك إساءة استخدام أموال الحزب فى جولاتها فى الخارج.

لم تضيع وينى وقتها فى الرد على هذه الشائعات ولا البكاء على المناصب التى فقدتها، بل طرحت مشاكلها الخاصة وركزت جهودها لتبرئتها من تهمة القتل لتستعيد وضعها السياسى، وكانت تظهر فى الجنازات وفى المسيرات والأماكن العامة، وتقابل الناس وتسألهم عن مشاكلهم، وعما يجب عمله لإصلاح أوضاعهم، وعادت إلى نشاطها القديم بالعمل كإخصائية اجتماعية (ويذكر أن وينى أول فتاة سوداء عملت فى الحقل الاجتماعى والطبى فى جنوب إفريقيا بعد أن أكملت دراستها فى المجال الاجتماعى عام ١٩٥٣م). ونزلت وينى إلى القاع مرة أخرى فى الأحياء البالغة الفقر فى جنوب إفريقيا، وفتحت مدرسة ومستوصفًا فى فولا بارك أكثر مناطق السود فقرًا، وذلك من حصيلة كتابها «روحى ذهبت معه» وهو ـ كما سبق الإشارة ـ عن مانديلا وفترة سجنه، وكسبت وينى من هذا النشاط الاجتماعى شعبية كبيرة أهلتها أن تعود مرة أخرى منتصرة فى العمل السياسى.

والحقيقة، أن وينى ومانديلا كليهما لم يخرج بعد كفاح دام ثلاثة عقود ونصف العقد من جحيم العنصرية سليمًا. خرج مانديلا فلم يجد وينى التى تركها قبل ٢٧ عامًا زوجة البيت المطيعة، بل وجد نفسه أمام قائدة سياسية محنكة عازمة على مواصلة كفاحها بفكر مستقل عنه. وعبرت وينى عن صدمتها فى مانديلا بقولها فى سيرتها الذاتية: «انتظرت طويلاً العيش مع إنسان يبادلنى الشعور نفسه فوجدت رمزًا تاريخيًا

وسياسيّا يحيا حياة غير إنسانية، وأضحى غير قادر على الوفاء بواجب الزوج والأب والجد، ولم يتصور أبعادًا أخرى فى الحياة غير البعد السياسى، إنه عاد إلى البيت رسميّا ولم يعد فعليّا».

إن مانديلا خرج باحثًا عن السلطة للإفريقيين جميعًا، بينما كانت وينى تبحث عن الزوج وعن قضايا الفقراء، فلم يلتقيا لا سياسيّا ولا أسريّا، وأسدل الستار عن نهاية قصة حب جارف لشخصيتين رائعتين.

* * *

جراسا ماشيل.. زهرة موزمبيق

«الحب يزدهر فى ربوع إفريقيا»، «محبان معًا على الطريق». «جراسا ماشيل هل تصبح السيدة الأولى لجنوب إفريقيا»، هذه بعض مانشتات الصحف فى جنوب إفريقيا، وكلها تشير إلى العلاقة العاطفية التى تربط الرئيس مانديلا بصديقته أرملة الرئيس الموزمبيقى الراحل ساموارا ماشيل الذى لقى مصرعه عام ١٩٨٦م.

هذه العناوين كانت توحى بأنها تخوض فى قصة حب رومانسية، ولكن أمر العلاقة تطور من مجرد مشاعر عاطفية إلى مناقشات لها جوانب سياسية وأخلاقية واقتصادية ينقسم بشأنها الرأى العام فى جنوب إفريقيا وموزمبيق.

بدأت العلاقة تحتل الصفحات الأولى فى صحف جنوب إفريقيا عندما ظهر مانديلا وجراسا متشابكى الأيدى يتنزهان فى ضاحية هوتن حيث يوجد منزل مانديلا، وكان مانديلا يلبس قميصًا شبابيًا أخضر اللون، وتمسك هى بوردة حمراء التقطها الرئيس وأعطاها لها، وكان المنظر مثيرا للدهشة، وأعطى دلالة أن الرئيس يريد أن يجعل علاقته وعواطفه بمسز ماشيل معلنة وعلى الملأ، وعندما سأله أحد الصحفيين عن علاقته بجراسا لم ينكر أن بداخله طوفانًا من المشاعر الدافئة تجاهها، غير أنه لم يشر إلى زواجها.

العلاقة نشأت بينهما عندما التقيا لأول مرة فى جنازة أليفر تامبو رئيس حزب المؤتمر الوطنى الإفريقى، وعبر مانديلا عن حزنه لجراسا أنه بفقدها قد صار أكثر رجل فى العالم يحس بوحشة. ويبدو أن جراسا أخذت على عاتقها منذ تلك اللحظة أن تزيح عنه وحشته، وأخذت العواطف تنمو بينهما ببطء. ثم انطلقت الشائعات عندما شوهدا يتعانقان خلال الزيارة الرسمية التى قام بها مانديلا لفرنسا، وتوالى ظهورهما معًا فى

المناسبات الرسمية: فى حفل زواج الرئيس موجابى رئيس زيمبابوى من سكرتيرته الصغيرة، وأثناء استقبال مانديلا لملكى السويد «كارل جوستاف وسيلفيا»، كما اصطحبها معه فى زيارته الرسمية لبلدان جنوب شرق آسيا والفلبين.

وهكذا، أصبحت قصة العاشقين حديث المجتمعات ينقسم بشأنها المواطنون فرقًا وأشياعًا، البعض يؤيد العلاقة ويرى أن ارتباط مانديلا بهذه السيدة أمر طبيعى؛ فهى تشعره بأنه لا يزال شابًا، ومن البديهى أن ينبض قلبه بالحب ليعوض عشرة آلاف يوم قضاها وراء القضبان. وأن من فى مثل سنه يحتاج إلى محبة امرأة طيبة لديها مؤهلات جراسا، ومنهم من ينظر إلى المسألة فى إطارها الأخلاقى ولا يوافق على أن تبقى هذه العلاقة غير الشرعية، ويرى أنهما يضربان للشباب مثلاً سيئًا بعدم زواجهما، ويعتبر من الخطأ أن يعيش كلاهما فى الخطيئة.

وجراسا ماشيل هى المرأة الثالثة فى حياة مانديلا بعد زوجتيه السابقتين إفلين وويني. وهى مناضلة ثورية تبلغ من العمر ٥٢ عامًا، وتصغر مانديلا بحوالى ٢٧ سنة، مثقفة ذات خبرة نضالية، كرست حياتها للكفاح من أجل حرية بلدها موزمبيق ضد الاستعمار البرتغالى. ولدت عام ١٩٤٥م وتعلمت فى جامعة لشبونة فى البرتغال، وحصلت على شهادتها الجامعية فى الفنون واللغة الألمانية، وهى تتكلم البرتغالية والإسپانية والفرنسية والألمانية والإنجليزية، وقبل عودتها إلى موزمبيق تلقت فى تانزانيا تدريبًا عسكريًا مع حركة فريليمو التى كان يقودها سامورا ماشيل، فخلبت لبه واستأثرت بقلبه وعقله فتزوجها.

وعندما وصلت حركة فريليمو إلى السلطة عام ١٩٧٥م، عينت جراسا وزيرة للتعليم، وشغلت هذا المنصب مدة ١٢ سنة، وكانت مهمتها شاقة فى بلد الأمية فيه تشمل ٩٣٪ من سكانه، وعندما تركت منصبها عام ١٩٨٩م كانت الأمية انخفضت إلى ٦٨٪، واختيرت خبيرة لليونيسيف، وغنمت تقديراً عاليًا لجهودها التى لا تكل لإصلاح شأن الأطفال، ليس فى بلدها فحسب، بل امتدت لتستوعب أطفال إفريقيا كلها. والحقيقة أن جهودها فى هذا المجال تتوافق مع جهود مانديلا الذى يعتبر القوة المحركة لمؤسسة الأطفال الحاملة اسمه فى جنوب إفريقيا؛ لذلك فإن كثيرين يرونها أنسب امرأة تماثل مانديلا.

أما بالنسبة لأهالى موزمبيق، فإن جراسا أو ماما ماشيل أو أم الوطن كله كما يطلقون عليها فإن رد فعلهم تجاه علاقتها بمانديلا متحفظ حذر، والرأى الغالب كان يتمنى لو لم تقم هذه الصلة العاطفية احترامًا لذكرى سامورا ماشيل أحد قادة موزمبيق الأبطال فى معركة استقلال إفريقيا ضد الاستعمار. ويودون لو استطاعت جراسا أن تستميل مانديلا لفتح باب التحقيق فى الظروف التى أدت إلى مقتل ساموررا، خاصة أن مواطنى موزمبيق يؤكدون أن الحادث كان مدبرًا.

لقى سامورا مصرعه فى أكتوبر ١٩٨٦م عندما تحطمت طائرته السوفييتية فى الترانسفال (فى جنوب إفريقيا)، وكان بها قادة من زامبيا وأنجولا، ولم ينج من ركابها الـ ٣٤ إلا عشرة فقط، لم يكن سامورا منهم. وبدأت الشكوك على الفور تتهم حكومة جنوب إفريقيا العنصرية؛ فالجو كان طبيعيّا وطاقم الطائرة كان مدربًا وعالمًا بالطريق. وذكر الأحياء منهم أن بوليس جنوب إفريقيا عندما وصل إلى مكان الحادث بدلاً من أن ينقذ الضحايا أسرع إلى حطام الطائرة، وأخذ يفتش فيها عن الوثائق الخاصة باجتماع القمة الذى كان سامورا متوجهًا إليها.

وفى الاحتفال بالذكرى العاشرة لوفاة سامورا، قال مانديلا: أن الحادث سرق من إفريقيا واحدًا من أعظم قادتها. وإنه سيقيم نصبًا تذكاريّا لسامورا فى مكان الحادث، وإنه يقدم أكبر وسام من الطبقة الأولى للرئيس الراحل، وعندما تناولت جراسا الوسام قبل يدها، وقال: إنه سيعيد البحث فى أسباب الحادث بواسطة لجنة تقصى حقائق.

وطبقا للتقاليد الثقافية لموزمبيق، فإنه إذا مات الزوج فالأخ يرث زوجة المتوفى وأولاده. ولساموراا ماشيل إخوة. ولكن من غير المتصور أن جراسا ذات الشخصية القوية المستقلة تسمح لنفسها أن تورث. وفى كتاب «موزمبيق الثورة تحت النار» الذى كتبه جوزيف ماندلون، قال الكاتب: إن فريليمو الجبهة الحاكمة التى قادت استقلال البلاد لا تزال تنظر إلى الزوجات على أنهن أقل شأنًا من أزواجهن، وأنه سينقضى وقت طويل حتى تحصل النساء على حق المساواة بالرجال. وكان ساموررا ماشيل يدرك ذلك، ويشعر بأنه لديه مهمة عليا بشأن إقناع رفاقه فى جبهة فريليمو أن يغيروا من نظرتهم للمرأة ومن سلوكهم نحو النساء؛ لذلك فى خطبة تقليده للحكومة المؤقتة فى سبتمبر ١٩٧٤م أعلن «أن واحدة من أهم الجبهات فى الصراع من أجل التحرر الحقيقى

لشعبنا هو تحرير المرأة . وأن الموزمبيقيات لا يزلن يعانين من عبئين باهظين : **أولهما** التقاليد الرجعية التى تفقدهن وضعهن فى المجتمع ، وتحط بهن أن يكن مجرد أدوات للرجال ، **والعبء الثانى** هو النظام الرأسمالى الاقتصادى الذى ينظر إليهن كمجال للاستغلال وأداة من أدوات الإنتاج» . ومع أن الدستور الموزمبيقى ينص على أن تحرير المرأة هو جزء من صميم مهام الدولة . فإن فريليمو وافقت على قانون ينص على أن تفقد المرأة فى موزمبيق جنسيتها الموزمبيقية إذا تزوجت أجنبيّا ، فى حين أن الرجل لا يفقد جنسيته إذا تزوج أجنبية .

ومعنى هذا أن جراسا إذن تزوجت مانديلا الأجنبى قد تفقد جنسيتها ، وتفقد لقب أم الوطن ، وهى بلا شك لا تريد أن تفقد مركزها وقيادتها فى بلادها ، حتى وإن كان من أجل رجل ذى مركز عالمى ؛ لذلك فقد ظلت تعلن مراراً «سأظل دائما زوجة سامورا ماشيل وسأبقى أنادى مسز ماشيل ، فهذه هى الوسيلة الوحيدة التى أستبقى بها زوجى حيّا» .

والأثر الآخر الذى يحدثه الزواج بالنسبة للبلدين ، أن هذا الارتباط قد يحدث بعض الكسب لجنوب إفريقيا . فالاستقرار العسكرى لجنوب إفريقيا سيكون أكثر وثوقًا ، والتحالف والروابط الثقافية والسياحية والأمنية تصبح أكثر اتصالاً . ولكن عبئا ما قد يعود على جنوب إفريقيا من الناحية الاقتصادية ، عبئًا مشابهًا لعبء ألمانيا الشرقية التى حملته على عاتقها ألمانيا الغربية بعد سقوط جدار برلين .

ومن جهة أخرى قد ينكأ الجراح القديمة بين البلدين التى أحدثها ميثاق «أنكومى» ميثاق عدم الاعتداء ، وجرى بين ساموار ماشيل والرئيس العنصرى بوثا عام ١٩٨٤م ، والذى على أساسه قبلت موزمبيق أن توقف تأييدها للجناح العسكرى لحزب المؤتمر الوطنى الإفريقى ، الذى كان يقود حركة النضال ضد حكم جنوب إفريقيا العنصرى وينطلق من أراضى موزمبيق ، وفى المقابل توقف جنوب إفريقيا تأييدها لحركة رينامو المناوئة لموزمبيق ، وكان هذا اتفاقًا تكتيكيّا من جانب ساموار ليتجنب المزيد من إراقة الدماء ، وبالنسبة للرئيس العنصرى بوتا فقد استطاع أن يشدد ضرباته على قواعد حزب المؤتمر الوطنى فى موزمبيق ، ويصل بهم إلى حافة المجاعة الجماعية .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات فقد عرض مانديلا على جراسا ـ كنوع من التوفيق ـ أن تزوره كل شهر فى جنوب إفريقيا ويقضيا أسبوعين معًا ، مع الأخذ فى الاعتبار أن

جراسا زعيمة، ولها عمل اجتماعى عام تقوم به من أجل نساء موزمبيق وأطفالهم، وهذا يضاعف عبء مسئولياتها فى بلدها خلال الأسبوعين الآخرين.

ولكن هذا العرض التوفيقى الذى بدا أنه مناسب لاثنين قررا أن يضعا مصالح أوطانهما قبل صالحهما الخاص لقى معارضة لمن نظروا إليه فى الإطار الأخلاقى، واعتبروا أنه من الخطأ البالغ أن يعيشا معا فى الخطيئة، فالأسقف ديزمونت توتو الحائز على جائزة نوبل للسلام، والرئيس السابق للكنيسة الإنجيلية لجنوب إفريقيا قال: إن الاثنين يضربان مثلاً سيئًا للشباب بعدم زواجهما، وآمل أن يغيرا هذا الأمر. والتعليق نفسه جاء من راعى الكنيسة الذى عقد زواج وينى من مانديلا، وكذلك من زعيم الحزب الديمقراطى المسيحى الإفريقى الذى علق قائلاً: «إن هذه العلاقة لا تصنع مثلا طيبًا، وتشجع على الإقامة المشتركة فى مجتمع أسود». وكان يشير بذلك إلى الحالة التى كانت قائمة أيام النظام العنصرى عندما كان يمتنع على الرجال السود العاملين فى أماكن بعيدة عن بيوتهم ان يحضروا أسرهم معهم؛ مما كان يؤدى إلى علاقات غير شرعية فى أماكن العمل. ورغم أأن ذلك يتعلق بماض انتهى، وعادت الزوجات إلى أزواجهن فلا يزال له تأثيره المدمر، فبعض الأزواج اعتادوا هذه الطريقة ولم يعودوا قادرين على الإقلاع عنها، وترتب على هذا أن عددًا كبيرًا من الزيجات فى جنوب إفريقيا صارت تنتهى بالطلاق فى المحاكم، والأسر التى انفصل فيها الأزواج زادت بنسبة ٢٠٪ من العشرين عامًا الماضية. وهناك دعاوى كثيرة ترفعها الأمهات تطلب النفقة لأولادهن من الآباء الغائبين.

إيفلين

أما المرأة الثانية فى حياة مانديلا فهى زوجته الأولى إيفلين ماسى التى ارتبط بها قبل زواجه من وينى، فقد عبرت عن رفضها لهذه العلاقة، وأعلنت بغضب: «إنه فى عالم يحتاج بإلحاح إلى مزيد من جرعات الأخلاق، فإن معيشة هؤلاء معًا رسالة خاطئة موجهة إلى الشباب تقول لهم إن الزواج ليس مهمًا، وأنا أفضل أن يتزوج مانديلا بدلا من أن يشير إليه الناس هذا هو الرجل البالغ ٧٩ عامًا مع عشيقته، إنه يحتاج إلى كرامة أن يكون زوجًا».

والمعروف عن ايفلين ـ التى تزوجت مانديلا عام ١٩٤٦م ـ أنها شديدة التدين، وكانت تعمل ممرضة ثم تقاعدت، وتعمل الآن فى مجال الشئون الاجتماعية، وكان من أسباب انفصالها كرهها العمل السياسى. . وفى عام ١٩٥٥م خيرت مانديلا بينها وبين استمراره فى حزب المؤتمر الوطنى. وبعد وقت قصير قبض على مانديلا مع آخرين، وأمضى أسبوعين فى السجن، وعندما عاد إلى منزله وجدها قد تركته وأخذت الأولاد، يقول مانديلا فى «سيرته الذاتية»: رجعت إلى مسكن موحش، ووجدت أننى لن أستنفد حياتى فى الصراع معها وإقناعها بالنضال الوطنى؛ فهى لا تستطيع أن تعيش مع تكريس حياتى لأمر آخر غيرها وغير الأسرة، إنها امرأة طيبة جدّا جذابة قوية مؤمنة، وهى أم مثالية، وأنا لم أفقد احترامى وإعجابى بها، ولكن فى النهاية نحن لا نستطيع أن نجعل زواجنا باقيًا، فسعيت إلى الطلاق وحصلت عليه فى ١٤ يونيو ١٩٥٥م، وقد تزوجت ايفلين بعد ٤٠ سنة منذ طلاقها من مانديلا من «سايمون راكينايل» وهو أرمل يبلغ ٧٧ عامًا، وأب لسبعة أولاد. وقالت تعليقًا على زواجها: إنها منذ انفصالها عن مانديلا ظلت تدعو الله أن يرزقها بشريك حياة آخر ليؤنس وحدتها، وقد استجاب الله لها.

وينى مانديلا

ورفضت وينى ـ المرأة الثالثة فى حياة مانديلا، والزوجة الثانية له ـ التعليق على قصة الحب لزوجها السابق قائلة: إنه لا شأن لها بهذا الأمر. ولكن هذا القول الذى يبدو متعقلاً لا يعنى الحقيقة، فقد سبق أن صرحت أنها لا تعترف بطلاقها من مانديلا الذى أجبرت عليه، وتم دون رضاها، وأن أى ارتباط من جانبه هو ارتباط باطل.

وفى خضم هذا الجدل حول العلاقة بين العاشقين، أعلن مانديلا زواجه من محبوبته جراسا فى يوليو ١٩٩٨م، ولم يبق ليواجه العواصف المحتملة من هذه الزيجة؛ إذ سرعان ما تنحى عن منصبه كرئيس دولة ورئيس الحزب لنائبه تابومبيكى إثر الانتخابات التشريعية التى جرت فى جنوب إفريقيا فى يونيو ١٩٩٩م، ويعيش مانديلا الآن بعيدًا عن الأضواء مع من اختارها قبله.